

المجزوءة الرابعة: مناهج نقدية حديثة

النصوص: المنهج الاجتماعي

نص نظري: من السياق الأدبي إلى السياق الاجتماعي صلاح فضل

إعداد: ذ. عبد الغني لخويت

يعتبر المنهج الاجتماعي من أبرز المناهج النقدية الحديثة. وهو منهج يدرس الأدب ويفسره في ضوء علاقته بالواقع الاجتماعي، ويعتبر هذا الواقع هو مصدر الأدب وموضوعه في نفس الوقت؛ فيبحث عن الصلات بين العمل الأدبي والوسط الاجتماعي الذي أنتجه. وترتبط المرجعية النظرية لهذا المنهج بالفلسفة الوضعية و المادية الاشتراكية المستندة إلى الفكر الماركسي، والواقعية الاشتراكية وعلم الاجتماع. وقد بدأ هذا المنهج في الظهور في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مع جان بابتيست فيكو(1668- 1744) ومدام دوستايل(1766- 1817) وهيوليت تين(1828-1893) وبرونتيير(1849- 1906). وفي القرن العشرين تطور المنهج الاجتماعي، وتعددت اتجاهاته كعلم اجتماع الظواهر الأدبية وعلم اجتماع الإبداع الفني في الأدب الذي يعتبر لوسيان غولدمان من أبرز ممثليه . وظهر المنهج الاجتماعي في النقد العربي نتيجة التأثر بالنقد الغربي، ومثله نقاد منهم محمود أمين العالم وغالي شكري ولويس عوض ونجيب العوفي . وكتبت حول هذا المنهج دراسات نظرية منها كتاب (منهج الواقعية في الإبداع الأدبي) لصلاح فضل، وهو ناقد مصري من مواليد 1938. ومن هذا الكتاب أخذ هذا النص النظري. فما هي القضية النقدية التي يتضمنها؟ وما هي الوسائل المنهجية والحجاجية والأسلوبية المعتمدة في عرضها؟

وننطلق في دراستنا للنص من ملاحظة مؤشرات منه تشكل مدخلا لقراءته وأولها العنوان الذي يتكون من شقين هما " السياق الأدبي" و"السياق الاجتماعي" ومن حرفي الجر "من" و " إلى" اللذين يدلان على الانتقال من سياق إلى آخر أثناء دراسة العمل الأدبي. وهذا ما يقوم به المنهج الاجتماعي. وتتضمن الفقرة الأولى من النص مؤشرات تدل على أن النص نقدي يتحدث عن المنهج الاجتماعي مثل: منهجان،دراسة اجتماعية الأدب، علم اجتماع الظواهر الأدبية.ومن ذلك كله نفترض أن النص يتحدث عن المنهج الاجتماعي و كيفية دراسته للظاهرة الأدبية مع ذكر بعض اتجاهاته.

وبعد قراءة النص وتفحص مضامينه نجد أن الناقد يتحدث عن قضية نقدية هي " بعض اتجاهات المنهج الاجتماعي وطريقة دراستهما للعمل الأدبي". وقد استهل الكاتب النص بتحديد منهجين في الدراسة الاجتماعية للأدب هما علم اجتماع الظواهر الأدبية بزعامة إسكاربيث، وعلم اجتماع الإبداع الفني في الأدب بزعامة لوسيان غولدمان. وبعد ذلك انتقل الناقد إلى إبراز موضوع علم اجتماع الظواهر الأدبية وهو دراسة الظاهرة الأدبية كغيرها من الظواهر الاجتماعية عبر ثلاث مراحل هي الإنتاج والتسويق والاستهلاك. ثم أبرز الكاتب فكرتين جوهريتين في منهج غولدمان هما البنية الدالة(الأعمال الأدبية أبنية دالة لا

يمكن فهمها وشرحها إلا من خلال الدراسة التوليدية)، ورؤية العالم وهي نظام الفكر عند جماعة اجتماعية معينة. ووبعد ذلك بين الكاتب المرحلتين اللتين يقوم عليهما منهج غولدمان وهما مرحلة الفهم أي دراسة عناصر النص الأدبي ذات الدلالة والتي تشكل بنية متماسكة، ثم مرحلة الشرح أي ربط البنية الدالة للنص بالبنية الاجتماعية لإبراز كيفية تكونها.

واتبع الكاتب في بناء النص طريقة استنباطية لأنه انطلق من قضية عامة هي وجود منهجين واضحين في دراسة اجتماعية الأدب، ثم انتقل إلى التفاصيل ؛ فبين موضوع كل منهج، وأبرز طريقة دراسته للأدب والمفاهيم التي يوظفها. وحقق ذلك تدرجا منهجيا في عرض الأفكار.

ووظف الكاتب في عرض القضية وتوضيحها أساليب متعددة؛ فاستعمل أساليب الشرح والتفسير وهي التعريف (تعريف كل منهج ومفاهيمه)، والوصف (بيان خصائص كل منهج)، والسرد (سرد المراحل المتبعة في كل منهج)، والاستشهاد (ذكر تعريف جان بياجيه للبنية).

و استعان الكاتب بأساليب لغوية حجاجية منها أسلوب التوكيد مثل " فإن العمل الفني العظيم لا يعبر عن رأي الكاتب و إنما عن رؤيته للعالم"، وأسلوب النفي مثل "" لا يتجاوز مجرد الاعتراف بهذا المبدأ" وأسلوب الاستفهام مثل "ما هي العناصر ذات الدلالة فيه؟". ووظف الكاتب لغة تقريرية مباشرة تغلب عليها الجمل الخبرية لأن هدفه الأول هو إيصال الأفكار و إقناع المتلقي. واستخدم وسائل حققت اتساق النص كوسائل الوصل أو الربط مثل : على أن، إلا أن، ثم، واو العطف...وكالإحالة مثل : هناك منهجان- وفي هذا المجال...

ووظف الناقد مفاهيم نقدية ذات صلة بمرجعيات معرفية مختلفة كعلم الاجتماع والاقتصاد والمادية الجدلية والأدب والنقد. ومن المفاهيم المرتبطة بعلم اجتماع الظواهر الأدبية نذكر: الإنتاج والتسويق والاستهلاك ومنتج السلعة و الأجيال الأدبية...ومن المفاهيم المرتبطة بعلم اجتماع الإبداع الفني في الادب نذكر: البنية الدالة ورؤية العالم والدراسة التوليدية والفهم والشرح ...

وفي الختام نستخلص أن الكاتب تحدث عن مرحلة من مراحل تطور المنهج الاجتماعي، هي مرحلة علم اجتماع الأدب (سوسيولوجيا الأدب)؛ فوقف عند المنهجين اللذين يمثلان هذه المرحلة وهما علم اجتماع الظواهر الأدبية بزعامة إسكاريبيث، وعلم اجتماع الإبداع الفني في الأدب بزعامة لوسيان غولدمان. والمنهج الأول يدرس الأدب كغيره من الظواهر الاجتماعية، ولا يهتم بخصائصه الفنية. أما منهج غولدمان فيدرس بنية النص الأدبي ويربطها بالبنية الاجتماعية لبيان كيفية تكونها، ولذلك يسمى منهج غولدمان بالبنوية التكوينية.

واعتمد الكاتب في بناء النص وعرض القضية المنهج الاستنباطي وأساليب الشرح والتفسير (التعريف و الوصف والاستشهاد والسرد)، ووظف لغة تقريرية مباشرة، و استخدم الروابط لتحقيق ترابط النص واتساقه. واستثمر مفاهيم نقدية لتوضيح القضية. لكن هناك انتقادات توجه إلى المنهج الاجتماعي منها أنه يركز على شرح مضامين النص الأدبي وعلاقتة

بمحيطه الخارجي، ويغفل خصائصه الجمالية أي شكله ولغته. وذلك من أسباب ظهور مناهج أخرى تركز على دراسة الجوهر الداخلي للنص كالمنهج البنوي.